الباب الثانى
من قلعة لحماية القاهرة
إلى ميدان للرماية وحديقة غنّاء

لأن صلاح الدين الأيوبى نشأ فى بيئة عسكرية ، لايعرف إلا القتال والحرب . . ولأنه ولد وعاش وسط أجواء الحرب فى شمال شرق الشام ـ وبالمناسبة هو كردى الأصل ـ فقد قرر أن ينشىء قلعة فى القاهرة تحمى الحاضرة المصرية ، وتقف دون الأطماع الصليبية .

وعلى غرار قلاع الشام حيث كان لكل مدينة قلعة تحميها ، جاء قراره بإنشاء قلعة فى شرق القاهرة .

ولهذا فى عام ١١٧٦م ، عهد صلاح الدين ببناء القلعة و السور الحجرى إلى يده اليمنى «بهاء الدين قراقوش » ، الذى أتم الجزء الأكبر منها عام ١١٨٣م بعد أن هدم الكثير من الأهرام الصغيرة فى منطقة الجيزة ، واستخدم أحجارها فى بناء القلعة . كأنه كان يريد لقلعته الخلود الذى تحقق للأهرام بفضل هذه الأحجار . وقد استخدم قراقوش الكثير من الأسرى الصليبيين فى بناء هذه القلعة . .

ورغم أن صلاح الدين بنى القلعة ليحتمى بها من أى غزو صليبى ، إلا أنه ـ فى الفترات القصيرة التى أمضاها فى القاهرة ـ لم يقم بالقلعة إقامة دائمة ، بل كان يتردد بينها وبين دار الوزارة بالقاهرة ، منذ كان وزيراً للخليفة الفاطمى العاضد ، وكذلك فعل ابنه الملك العزيز عثمان وأخوه الملك العادل .

وكان الملك الكامل محمد هو أول من انتقل للإقامة نهائياً من دار الوزارة إلى القلعة عام ١٢٠٧م . وهكذا فقدت القاهرة مكانتها كمركز للحكم . وبعد أن كانت القاهرة

obeikandl.com

« مدينة ملكية » أى لإقامة الخلفاء والوزراء وكبار قواد الجيش ، بدأت الأنشطة التجارية والحرفية تتسرب إلى القاهرة ، وتنتشر فى موقع القصور الفاطمية ، وبالذات حول الشارع الأعظم أو قصبة القاهرة . وتلك كانت البداية الحقيقية لأسواق القاهرة الفاطمية مثل النحاسين والسروجية والسيوفية والخيامية والصناديقية وغيرها . ورغم هذا ظلت الفسطاط ـ أى مدينة مصر ـ رغم الأهوال التى مرت بها ، وأشهرها الحريق الذى استمر ٥٥ يوماً بأمر الوزير الفاطمى هى المدينة الأكثر اكتظاظاً بالسكان ، حيث عاد للإقامة بها بسطاء الناس وعوامهم .

ثم نقل الملك الكامل محمد الأيوبى سوق الخيل والجمال والحمير إلى الرميلة تحت القلعة ، فأخذ الناس فى تعمير ما حولها من الدرب الأحمر والمحجر وجهة القطائع والصليبة ، بعد أن كان بعضها مقابر وبعضها بساتين . وعاشت القلعة فترة ازدهار ، بعد أن انتقل الكامل محمد للإقامة بالقلعة وجعلها منزلاً للرسل الأجانب أى سفراء الدول . إلى أن جاء الملك الصالح نجم الدين ، فبنى قلعة فى جزيرة الروضة ، ونقل إليها مقر الحكم ، وبدأ عرش قلعة الجبل يضعف . .

إلى ان جاء السلطان الظاهر بيبرس ، فأعاد الحياة إلى قلعة الجبل هذه ، عندما بنى قصراً سماه « الدار الجديدة » ، وكان يشرف على ميدان الرميلة ، وأنشأ حماماً بسوق الخيل لولده الملك السعيد ، وهو القصر الذى هدم بعد ذلك ، ومحله القرة قول «قسم بوليس القلعة » وأيضاً عمارة والدة الخديو إسماعيل من ناحية ميدان محمد على .

كما بنى بيبرس « دار العدل » تحت القلعة عام ٦٦١هـ ، وأصبح يجلس فيها ويستعرض قواته المسلحة يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع بفعل فكره وحياته العسكرية التى تربى عليها. وهذه الدار هجرت أيام الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٢٢ هـ ، عندما أمر بهدمها وأقام مكانها «الطبلخانة» ومحلها الآن شارع الدحديرة. .

وحدث أيام الظاهر بيبرس أن عم الغلاء وبلغ سعر أردب القمح ١٠٠ درهم ، وقل الخبز . فنادى السلطان فى الفقراء أن يتجمعوا تحت القلعة ، ونزل بنفسه فى يوم

الخميس ٧ من ربيع الآخر من القلعة ، وجلس بدار العدل ، وناقش قضية الغلاء والأسعار . فأمر بإبطال التسعيرة الجائرة ، وكتب مرسوماً إلى الأمراء ببيع ٥٠٠ أردب كل يوم ، وأن يكون البيع للضعفاء و الأرامل فقط دون غيرهم ، لأنهم لايقوون على المزاحمة للحصول على القمح . وأمر الحجاب فنزلوا تحت القلعة وكتبوا أسماء الفقراء الذين تجمعوا فى ميدان الرميلة . كما فعل فى كل الجهات . وقال « والله لو كان عندى غلة تكفى هؤلاء لفرقتها » . . ولهذا أمر بتحميل الفقراء على الأمراء أى يتولى كل أمير أمر إعاشة عدد من الفقراء ، وتحمل هو أمر إعاشة الألوف منهم ، وحمَّل ألوفاً على ابنه «هكذا يكون الحاكم الصالح » . وأمر ديوان الجيش فوزع بقية الفقراء على الأمراء ، وقرر لكل فقير كفايته من القمح لمدة ثلاثة أشهر . وكان يوزع ١٠٠ أردب كل يوم تخرج من الشون السلطانية إلى جامع ابن طولون لتوزع من هناك.

وفى عهد تولى السلطان الناصر محمد بن قلاوون للحكم استمر ازدهار القاهرة ، و إلى عهده يعود العمران للمناطق الواقعة بين القلعة والقاهرة الفاطمية . والناصر محمد تولى الحكم ثلاث مرات بين عامى ١٢٩٣ م و١٣٤١م . ويقول معاصره ابن فضل العمرى إن حاضرة مصر فى وقته كانت تشتمل على ثلاث مدن عظيمة صارت كلها مدينة واحدة ، هى : الفسطاط . . والقاهرة . . وقلعة الجبل ؛ فهو منشىء الطبلخانة تحت القلعة والميدان ، وقناطر مجرى العيون . والناصر محمد هو الذى حفر الخليج الناصرى فى البر الغربى للخليج المصرى عام ١٣٢٤م ، ويستمد مياهه من النيل إلى الشمال من فم الخليج فى مواجهة الحد الشمالى لجزيرة الروضة . ويسير موازياً للخليج إلى أن يلتقى به شمال جامع الظاهر بيبرس . وأدى ذلك إلى حكر عديد من الأراضى الواقعة بين الخليجين ، وبين الخليج الناصرى والمنيل . فمنحها السلطان إلى الأمراء الذين أقاموا عليها القصور والمبانى التى صارت نواة العمران فى هذه المنطقة . .

●● وأدى انتقال المركز السياسى للدولة ـ فى العصر المملوكى ـ إلى القلعة تلقائياً إلى إقامة عدد من كبار رجالات الدولة ، بالقرب من مقر الحكم الجديد . فى الوقت نفسه

الذى انتقلت فيه العديد من الأنشطة الاقتصادية المرتبطة بالنظام العسكرى المملوكى من القاهرة ؛ لتستقر حول ميدان الرميلة تحت القلعة ، مثل سوق الخيل والجمال وسوق الخيم « الخطط المقريزية ص ٣٦٤ » غير بعيد عن السروجية والسيوفية وسوق السلاح . وتمركز النمو العمرانى للقاهرة حول هذه المنطقة ، وأقيمت العديد من المنشآت ، أبرزها مسجد السلطان حسن وجامع ، وخانقاه شيخون وغيرها . وجامع السلطان حسن يعد من أضخم الجوامع فى العالم الإسلامى . واستغرق بناؤه ٣ سنوات ، وافتتح للصلاة فيه عام ١٣٦٠م ، وتكلف أكثر من ٢٠ مليون درهم ؛ الأمر الذى يجعله من أكثر منشآت القاهرة تكلفة .

● **قناطر العيون معجزة مائية :**

ولا يمكن الحديث عن القلعة دون الحديث عن «قضية توفير المياه لسكانها » . وهى قضيه بدأت مع بدء إنشاء القلعة ؛ ذلك أن الخوف من الحصار كان وراء حفر «بئر يوسف » داخل أسوار القلعة لتوفير المياه ، وهى تنسب إلى «يوسف» صلاح الدين الأيوبى ، وليس كما يعتقد العامة خطأ إلى سيدنا يوسف . .

ثم جاءت فكره نقل المياه للقلعة ـ من النيل . . هنا فكر العقل الهندسى فى بناء هذه القناطر لحل مشكلة الفرق بين انخفاض مستوى المياه عند النيل . . وارتفاع أرض القلعة . فكان السور الحامل للقناطر المقام على هيئة عيون مرتفعاً عند بداية المأخذ عند فم الخليج ، ثم ينخفض ـ أو يرتفع السور بعد ذلك حسب ارتفاع أو انخفاض الأرض التى يعبرها السور الحامل للقناة أعلاه . .

وعند المأخذ فى فم الخليج تم بناء بئر عميقة كانت تنزل إليها الجمال والأبقار والبغال لتدير السواقى ، التى تسحب المياه من فرع النيل عند سيالة الروضة إلى أعلى القناطر ، حيث كانت هناك قناة فى هذا الارتفاع ، وينساب داخلها الماء الصاعد من السواقى ليصل إلى القلعة . وتم هذا العمل العظيم فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، صاحب المجموعة العظيمة فى النحاسين أمام بيت القاضى بالقاهرة .

ثم جاء السلطان قانصوه الغورى فهدم قناطر المياه هذه المحمولة على العقود أو البواكى ، وأعاد تشييدها من جديد . وفى هذه المرة كان الهدف رعاية النباتات والأشجار بجانب توفير المياه لسكان منطقة القلعة . وقام المهندسون بتشييد بئر متصلة بالنيل مع ٧ سواق ، تديرها الأبقار لرفع المياه إلى القناه التى شيدت فوق أقواس ، ترتكز على دعائم ـ هى سور العيون الباقى للآن ـ وكانت تتجه نحو الشرق متخذة طريق قناة الناصر محمد بن قلاوون إلى أن تصل إلى سور صلاح الدين الأيوبى، ثم تنعرج بعدها نحو شمال شرق حتى تبلغ الميدان و القلعة . وتم تشييد هذه القناطر التى يبلغ طولها ٣٤٠٥ أمتار ، من بينها ٢١٥٥ متراً شيدها الغورى ، خلال الفترة من مايو ١٥٠٧م إلى أكتوبر ١٥٠٨م .

●● وقد أبدى إبن إياس إعجابه الشديد بهذه القناطر ، ولكنه انتقدها فى الوقت نفسه ، وقال « جاءت هذه المجراة « القناطر » من العجائب والغرائب ، ولكن صرف على بنائها ما لا ينحصر من الأموال وغالبه من وجوه الظلم و المصادرات . . . » وهكذا أصبح ميدان القلعة حديقة باذخة بعد تأمين وصول المياه إليه . . وفى عام ١٥٠٩م وعام ١٥١٠م بدأت الشجيرات النباتية فى طرح زهور متنوعة للغاية ورائعة الجمال .

وكان السلطان الغورى يجلس متباهياً فوق منصة كبيرة «دكة» مطعمة بالعاج والأبنوس ، ويفرش فوقها مقعداً مخملاً وتظلله فروع الياسمين ، تقف حوله المماليك الحسان بأيديهم وأيديهن « المذبات » ينشون عليه . ويعلق على الأشجار أقفاصاً فيها طيور مسموعة «مغردة» مابين هزازات ومطوق وبلابل وشحارير وقمارى وفواخت وغير ذلك من طيور المسموع . ويطلق بين الأشجار دجاج حبشى وبط صينى وحجل. وتار ة يجلس على «البحرة » البحيرة التى طولها ٤٠ ذراعاً وتمتلئ كل يوم من ماء النيل بسواقٍ نقالة من المجراة «قناطر المياه» تجرى ليلاً ونهاراً فيجلس على سرير«كرسى عرش» هناك فى غالب أيام الجمع . . » .

ويستمر إبن إياس فى وصف بستان ميدان الرميلة فيقول : « وفى هذا المكان كانت

تقام حفلات باذخة فى مناسبات وأعياد متنوعة . ويجرى أيضاً استقبال الوفود الرسمية والسفراء .» أى كانت مكاناً للفخر على مبلغ ما وصلت إليه مصر من ثراء وفن وحضارة» ، ويمتد الميدان عند سفح الأسوار حيث تجرى تدريبات رائعة على الفروسية. إن هذا الميدان شاسع للغاية ؛ إذ تبلغ أبعاده الكثير ، طوله أكثر من عرضه.

وتضاهى الحديقة الميدان فى اتساعها ، ويوجد فى وسطها كشك مكشوف يرتكز على أعمدة مغطاة بالنباتات الخضراء ، ويتدلى فوق كل عمود قفص فى داخله عصفور صغير مغرد. وكانت الحديقة مليئة بأشجار الرمان والكمثرى والتين والعنب والريحان وأنواع أخرى من الأشجار . .

●● أى أن ميدان القلعة «الرميلة» أيام قانصوه الغورى ، كان عبارة عن جنة وارفة الظلال تفوق حديقة الأورمان الحالية . بل كانت حديقة للطيور والحيوانات أيضاً . وكل هذا بسبب هذا المشروع «الغريب» كما وصفه ابن إياس . . مشروع سور العيون أو القناطر التى تنقل المياه من النيل إلى القلعة إلى هذا الحى العريق لتنعشه .

●● ولكن ما معنى «الرميلة» التى أصبحت اسماً للميدان سنوات طويلة خصوصاً فى العصر المملوكى المتأخر ؟!

كان المماليك مغرمين بالمسابقات وأعمال الفروسية بحكم أن نشأتهم عسكرية. وكما تم إنشاء ميدان باب اللوق ليكون مكاناً لهذه المسابقات والمنافسات الرياضية والعسكرية والرمى بالنشاب تحول الميدان تحت القلعة إلى ميدان مشابه للفروسية والرمى بالسهام والقوس . . والبندق أى البندقية فى بداية ظهورها . وكانت هذه المسابقات تتم ليس فقط فى المواسم والأعياد ، بل على فترات متقاربة تشغل وقت الفرسان المماليك ، وحتى يحتفظوا بلياقتهم الجسمية والحربية ؛ أى تحول الميدان إلى ميدان للرمى. . والرماة والرماية . . ومن هنا جاء أصل الكلمة ميدان « الرُّمَيلة » والغريب أنه فى فترات الصراع السياسى والعسكرى بين المماليك ، ثم فى العصر العثمانى أن تحول

الميدان إلى ميدان حرب لضرب القلعة وإجبار ساكنها على الاستسلام . . وهناك من استخدم مسجد السلطان حسن كمكان أو قلعة تواجه القلعة سواء للتحصن به ، أو لضرب قلعة الجبل نفسها منه ، مما جعل قيام أحياء سكنية بهذه المنطقة أمراً غاية فى الصعوبة ؛ أى إن ثورات الجند ، وصراع أمراء المماليك ، و الخلافات بين الأمراء والولاة الضعفاء فى العصر العثمانى كانت وراء هروب السكان من السكنى فى منطقة القلعة ، وفضلوا الحياة بعيداً عنها . .

● وبسبب تزايد إقامة العسكريين فى المناطق القريبة من القلعة وحولها مثل سوق السلاح وسويقة العزّى «شارع سوق السلاح وشارع النبوية الآن » حتى نهاية القرن ١٨ ، دفع الطبقة الأرستقراطية إلى البعد عن ضواحى القلعة والمساكن القريبة منها حيث سكن الجند والعسكر . . لأن هؤلاء كانوا يفضلون أن يكونوا قريبين من مقر الحكم . . أى من القلعة . وكمثال على هروب الأعيان والتجار عن الإقامة بالقرب من القلعة أن يوسف كتخدا عزبان حوّل منزل والده المتوفى عام ١٦٩٤م ، والواقع فى سوق السلاح إلى وكالة تجارية . .

والمعروف أن وجود مقر الباشا «أى الوالى » وثكنات الانكشارية والعزب فى القلعة ساعد على اندلاع الفتن والاضطرابات المتتالية فى القاهرة خلال القرنين ١٧ و١٨ ، وكان غرضها فى الأساس احتلال القلعة . وبالتالى كان مسرح هذه الصراعات والعمليات هو المنطقة المجاورة لميدان الرميلة وجامع السلطان حسن . .

●● إلى أن جاء عصر محمد على باشا . وقرر الاهتمام بالقلعة ومبانيها ، ورأى أن من الواجب أن تعود كما كانت ثكنة عسكرية بمعنى الكلمة ؛ خصوصاً بعد أن تخلص من المماليك فى مذبحة القلعة المشهورة يوم الجمعة أول مارس ١٨١١م . وقرر محمد على أن يعيد القلعة كما كانت ، فأعاد تحصينها من الجهة الشرقية . وأزال أغلب منشآت المماليك التى كانت موجودة بها مثل الإيوان الكبير والقصر الأبلق ، وبنى لنفسه فى موضعها قصر الجوهرة ، الذى اتخذه مقراً للحكم ، يدير منه إمبراطوريته الواسعة

الممتدة من وراء جبال طوروس داخل شبه جزيرة الأناضول ؛ أى داخل عقر دار السلطنة العثمانية التركية والشام وفلسطين وكل شبه الجزيرة العربية من البحرين وقطر على الخليج العربى شرقاً إلى الحجاز على البحر الأحمر غرباً واليمن فى أقصى الجنوب ، وكذلك السودان . . وكان من هذا القصر يشرف على القاهرة من هذا الموقع المميز أعلى قلعة صلاح الدين . . وهو القصر الذى احترق فى سبعينيات القرن العشرين .

ثم مسجده الجامع الذى شيده على طراز مساجد إستانبول ، وفى العدد الثانى من « الوقائع المصرية » الصادر بتاريخ ٩ جمادى الآخرة عام ١٢٤٤هـ ، أصدر محمد على قراراً بإنشاء جامعه الكبير فى القلعة ، فوضع أساسه يوم الخميس ١٩ جمادى الأول عام ١٢٤٤هـ بحضور ولده إبراهيم باشا والى جدة ، وملا أفندى قاضى مصر والوجوه والأشراف والعلماء وكتخدا بك أى نائبه ، وهو منصب يعادل الآن منصب رئيس الوزراء ، كما حضر الحفل كبار الشورى . .

●● وأقام محمد على داخل أسوار القلعة مقار واسعة للجيش العصرى الذى أشرف على إنشائه وتولى قيادته ابنه البطل إبراهيم باشا . وتولى تدريبه وإعداده الكولونيل سيف أحد ضباط جيش نابليون ، الذى أسلم وأصبح رئيساً لأركان حرب الجيش المصرى ووزيراً للجهادية أى للدفاع . . كما أقام محمد على مصنعًا للأسلحة والبارود وداراً لضرب العملة ، كما أنشأ بها عديداً من دواوين الحكومة العصرية التى أنشأها . وفى الميدان الفسيح بالقلعة ، كان يقام سوق العصر الذى أصبح من أهم وأشهر أسواق القاهرة . وكان يلتقى فيه المشعوذون والحواة المدربون هم وحيواناتهم .

وعادت القلعة كما أنشأها صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وبدأ بناءها عام ١١٨٣م وانتهى منها عام ١١٨٤م ، وظهر تخطيطها الأصلى على ما بناها بهاء الدين قراقوش قلعة تتخذ شكلاً رباعى الأضلاع . طول الضلع المتجه من الغرب إلى الشرق ٥٦٠ متراً . وطول الضلع المتجه من الشمال إلى الجنوب ٣٢٠ متراً ، ويبلغ امتداد الأسوار والأبراج ١٧٠٠ متر ، وتبلغ المساحة المسورة حوالى ٣٢ فداناً . وبعض أبوابها مستديرة

والأخرى مربعة . . أى عادت كما بدأ بناءها صلاح الدين . . وكما أكملها الملك العادل الأيوبى . . حيث كانت تعلوها شرفات مستديرة ، وهى فتحات يطلقون منها وسائل الحرب و القتال .

وبسبب الاستقرار الأمنى الذى تحقق فى عصر محمد على ، عاد الأمان و الهدوء إلى ميدان القلعة . . وذهبت الصراعات العسكرية حول الحكم إلى الأبد . . كل هذا شجع الأهالى على بناء مساكنهم فى المناطق القريبة من القلعة ، فانتعشت حركة العمران واتصلت مساكن حى القلعة بمساكن منطقة العتبة الخضراء والدرب الأحمر . . إلى أن جاء عصر إسماعيل باشا . .

وحقيقة بنى حكام مصر بعد محمد على وابنه إبراهيم وعباس الأول وسعيد قصوراً خارج القلعة . . إلا أن مقر الحكم ظل فى القلعة طوال عهودهم . . إلى أن جاء إسماعيل باشا فبدأ أولاً فى إصلاح ميدان الرميلة ، وغرس به الأشجار ، وأوصله بشارع محمد على فصار من أكبر ميادين القاهرة . بل إنه فكر فى إقامة تمثال لجده محمد على فى الميدان إلاّ أنه قرر إقامته فى الإسكندرية . . ويعود لإسماعيل باشا فضل تجديد أسوار القلعة عام ١٨٦٨م . ثم عندما فكر فى مد خط للسكة الحديد يصل القاهرة بضاحية حلوان الحمامات ، قرر أن يبدأ هذا الخط من ميدان القلعة . . قبل أن ينقل إلى باب اللوق .

ولكن لأن إسماعيل باشا كان يريد أن يكون قريباً من شعبه ، قرر أن يبنى قصر عابدين فى وسط القاهرة ليحيا بين الشعب ويحتمى به ، لا أن يحتمى بأسوار القلعة الحصينة . وبدأ إسماعيل بناء القصر عا م ١٨٦٣م ، وانتهى البناء لينتقل إسماعيل إلى قصر عابدين عام ١٨٧٢م ، وينتهى بذلك سلطان القلعة التى ظلت مقراً لحكم مصر منذ صلاح الدين الأيوبى ، ثم طوال العصر الأيوبى ، ثم عصر سلاطين المماليك البحرية ، ثم المماليك البرجية ، وطوال العهد الذى وقعت فيه مصر تحت الحكم

العثمانى من عام ١٥١٧م ، إلى أن انتهى دور القلعة كمقر للحكم فى عهد إسماعيل ، عندما تركها ونزل ليقيم بين شعبه فى قصر عابدين عام ١٨٧٢م .

●● و إذا كان الفضاء الواسع تحت القلعة من ناحية الغرب قد حمل أسماء عديدة ، منها : ميدان الرميلة ، وميدان محمد على . . فإنه قبل أن يحمل اسم ميدان القلعة حمل اسم ميدان القره قول . فقد كان فى هذا المكان يقام مركز الشرطة ، وهذا هو معنى القره قول . ولكن كمعظم الأسماء التى أصابها التحريف ، تحول اسم القره قول على لسان العامة إلى «الكراكون » ، وأصبح الناس يقولون : أروح فيك الكراكون . . أى إلى قسم الشرطة ، ولكن الاسم الشائع الآن هو ميدان القلعة ؛ حيث كانوا يلعبون كرة الصولجان «البولو» .

وكان من أفضل أعمال الخديو إسماعيل لتعمير حى القلعة ، قراره بشق شارع يصل بين القلعة وميدان العتبة الخضراء . . ليطلق عليه اسم جده العظيم : محمد على باشا . . ولينشىء بذلك محوراً مرورياً حتى ليقال إن شارع محمد على هو أول شارع عرضى ينشأ بالقاهرة !!

● شارع القلعة .. أم شارع محمد على ؟

●● ولايمكن الفصل بين القلعة وشارع محمد على !! فهذا الشارع هو الذى فتح الطريق أمام حى القلعة ؛ لكى ينشط ويتصل بالقلب الجديد للعاصمة المصرية . فضلاً عن أن هذا الشارع بامتداده الطبيعى الذى تم أيضاً أيام الخديو إسماعيل ـ ونقصد شارع كلوت بك ـ خلق محوراً جديداً للمرور يربط بين حى القلعة وميدان باب الحديد ؛ أى إلى الشريان الجديد للمواصلات المتمثل فى خطوط السكك الحديدية . وعندما تم شق شارع محمد على ، واتصل بشارع كلوت بك ، اقتربت المسافات ، وزاد التقارب عندما مدت خطوط الترام ، فكان من أول الخطوط خط العتبة ـ القلعة ، وخط العتبة ـ باب الحديد !! فما حكاية شارع محمدعلى؟!

كانت المنطقه الشرقية من ميدان العتبة عبارة عن مقابر وتلال ، وتعرف باسم ترب المناصرة وترب الأزبكية . وقرر إسماعيل إزالة هذه المقابر وإبعادها عن قلب القاهرة ، وتم جمع بقايا المدافن من عظام وغيرها ، وحفر بئراً عميقًا دفن فيها هذه العظام ، وبنى عليها مسجداً هو المسمى الآن باسم جامع العظام على يمين الداخل إلى شارع عبد العزيز من ناحية العتبة ، والمتجه إلى شارع البيدق . أما باقى العظام فتم نقلها إلى مقابر الإمام الشافعى ، وأزيلت مبان كثيرة منها جامع الأمير أزبك ، وأقيم محله تمثال إبراهيم باشا قبل أن ينقل إلى موقعه الحالى فى ميدان الأوبرا : ميدان إبراهيم باشا سابقاً.

وأزيل أيضاً جامع إسكندر باشا ، وامتازت الأحياء التى مر بها شارع محمد على من العتبة إلى ميدان القلعة ـ بطابع خاص ، وارتفع إيجار السكن فيها . وشيدت على ضفتيه عمارات كبيرة كالتى أنشأها الحاج محمد أبى جبل من التجار الموسرين ، وقصر حسن باشا الشريعى ، وقصر نعمانى باشا ، وسراى الأمير رستم باشا وغيرها . .

●● ويلاحظ أن الطراز المعمارى للمبانى التى أقيمت على طول الشارع ذات طابع إسلامى ـ عربى ؛ فالبواكى هى وحدة الإنشاء بهدف توفير مناطق للظل ؛ لحماية المشاة من حرارة الشمس صيفاً ، والأمطار شتاءً ؛ لأن الهدف أيضاً كان إنشاء منطقة للأسواق ، فكان لابد من توفير الظل والحماية للمشترين والبائعين معاً . ويلاحظ أيضاً أن الطراز نفسه ؛ أى طراز البواكى امتد مع شارع كلوت بك أيضًا لأنه الامتداد الطبيعى لشارع محمد على . وفى الشارعين محمد على وكلوت بك كثرت الحانات والبارات ، وأشهرها حانة العنبة فى شارع محمد على .

وكان إسماعيل باشا حريصاً على إنشاء عدد من المبانى العامة فى الشارع الذى سيحمل اسم جده الكبير ؛ فأقام دار الآثار العربية على ناصية الشارع مع ميدان باب الخلق . . ثم أنشأ دار الكتب الخديوية كأول وأكبر دار جمع فيها أمهات الكتب، بعد أن كانت متناثرة بين المكتبات الخاصة ومكتبات الأفراد والباشوات ومكتبات المساجد. .

●● واشتهر شارع محمد على بالفرق الموسيقية النحاسية ، وأشهرها فرقة حسب الله ، التى يعتقد البعض أنها مجرد حكاية فنية ، بل هى حقيقة . وكان حسب الله هذا يعمل فى موسيقى الحرس الخديوى ، وعندما ترك موسيقى الحرس كون أول جوقة للموسيقى فى القاهرة تسير فى مواكب الأعراس . . وأيضاً أمام نعوش الموتى !! وكانت القاهرة قبل حسب الله لا تعرف هذا النوع من الموسيقى ، إلا فى المواكب الرسمية للخديو . . ويعود تاريخ « القهوة التجارية» إلى بدايات إنشاء الشارع نفسه . . وهى تقع فى أول شارع محمد على من ناحية ميدان العتبة .

وإذا كان شارع محمد على عرف الحانات و البارات ، إلا أنه أيضاً عرف المقاهى الثقافية ؛ إذ كانت هناك «مقهى الكتبخانة» أمام دار الكتب الخديوية . وكان يجلس إليها الشاعر حافظ إبراهيم فى أوقات عمله الرسمى فى دار الكتب ، يدخن الشيشة ويسمر مع موظفى الدار وزوارها من أمثال الشاعر عبد المطلب والشاعر حسن القاياتى ، والظرفاء أمثال محمد البابلى والشيخ عبد العزيز البشرى وأحمد جاد .

وعلى بعد قليل من هذا المقهى ، كان هناك محل للشراب البرىء يقدم منقوع الشعير والزبيب والخروب والسوبيا ، وكان صاحبه محمد صالح الشربتلى ـ فى النصف الأول من القرن العشرين ـ معروفاً لكل أهل القاهرة ، ويقصده الناس على الحمير الحصاوى والمطهمة والمزينة . وكان وراء دار الكتب مقهى بلدى لرجل عرف بشغفه بصراع الديوك ، كان اسمه « مقهى الديوك » .

●● وشارع القلعة أو شارع محمد على منذ يبدأ من ميدان العتبة ، يكون على يمينه شارع عبد العزيز الذى أنشأه أيضاً الخديو إسماعيل ، وعلى يساره شارع الأزهر ـ الذى شقه الملك فؤاد الأول ابن إسماعيل . وبينه وبين بداية شارع الأزهر توجد سوق الخضار، التى أنشأها إسماعيل باشا لتكون سوقاً نموذجية للخضر والفاكهة واللحوم والأسماك . ثم يخترق الشارع حى المناصرة ، ويتقاطع بعده على شارع حسن الأكبر ، عند ميدان باب الخلق ثم شارع غيط العدة ؛ حيث يصل إلى شارع الخليج المصرى ثم شارع درب الجماميز .

وعلى يسار شارع القلعة ـ بعد باب الخلق ـ نجد منطقة الداودية ، وغير بعيد نجد جامع الملكة صفية ، ثم المغربلين حيث جامع قوصون وحى الدرب الأحمر ، ثم حى السروجية ، وأهم مبانيها جامع جانم البهلوان . ثم يتقاطع مع شارع السروجية إلى أن يصل منطقة المنشية ليلتقى مع شارع سوق السلاح ، ليشرف على جامع الرفاعى وجامع السلطان حسن ، ويصب فى ميدان محمد على .

أما على يمين شارع محمد على منذ نترك ميدان باب الخلق ، فنجد تكية عباس باشا الأول ثم سكة الحبانية فجامع القاضى يحيى زين الدين . ثم منطقة الحبانية فشارع المدارس ، ثم مبنى دار الإفتاء القديم ، قبل أن نصل إلى شارع على باشا إبراهيم فشارع إلهامى باشا حيث حى الحلمية ومدرسة بمبه قادن ، ثم شارع على باشا مبارك ليتقاطع شارع محمد على مع شارع الحلمية قبل جامع سيدى ألماس ، لنصل إلى تقاطع الشارع مع شارع المدفر ثم تكية المولوية إلى جامع السلطان حسن إلى منطقة السيوفية، حيث مدرسة القربية إلى ميدان محمد على باشا . .

وعندما كانت خطوط الترام تخدم أحياء وشوارع القاهرة ، كانت هذه المنطقة تخدمها خطوط أرقام ٤ و١١ و١٣و٢٢و٢٣ بينما كانت تخدمها خطوط أتوبيس أرقام ١و٨و٢٣و٣٠و٣١ .

● شارع محمد على .. و الفن :

●● وبحكم قرب شارع محمد على من مسرح التياترو الخديوى ومسرح الكوميدى فرانسيز ، وغير بعيد عن الأوبرا ، اشتهر هذا الشارع بتواجد فرق الموسيقى النحاسية اللازمة لإحياء حفلات الزواج والطهور والموالد والحج وغيرها . وأيضاً نشأت فيه صناعة الآلات الموسيقية . . واشتهرت مجموعة من المقاهى كان يجلس إليها أعضاء هذه الفرق الموسيقية انتظاراً لوصول الزبائن ، وليست فرقة موسيقى حسب الله فرقة خرافية ، بل كانت هناك فرقة بهذا الاسم تأخذ مكانها فى شارع محمد على فعلاً كما أشرنا من قبل .

وبسبب شهرة الفرقة الفنية فى شارع محمد على أنتج ، عبد الغنى السيد ، الملاكم الذى كان يمتلك صوتاً رخيماً جميلاً فيلماً باسم «شارع محمد على » ، وتقاسمت البطولة معه الفنانة المطربة حورية محمد .

كما عرف تاريخ السينما المصرية فيلم « شارع الحب» وفيلم « لحن الوفاء » للعندليب الراحل عبد الحليم حافظ وحسين رياض وشادية وعبد السلام النابلسى وغيرهم . . وشهد المسرح مسرحية « شارع محمد على » التى قام ببطولتها فريد شوقى وشريهان .

وكانت « القهوة التجارية » مقراً لأجيال عديدة من الفنانين والفرق الموسيقية والطبالين والزمارين . . حتى نشأت «طبقة عوالم محمد على » ؛ حيث الرقص الشعبى وإحياء الأفراح والليالى الملاح !! بل إن معظم أعضاء هذه الفرق أقاموا وسكنوا فى حى المناصرة ليكونوا قريبين من مصدر رزقهم ، وكانت القهوة التجارية لصاحبها الحاج على منتدى للفنانين ، ومحل اجتماعهم ، وكانت بمثابة دار النقابة لهم يلتقى فيها فقراء الموسيقيين .

●● وانتهى عصر عوالم شارع محمد على ، وعصر موسيقى حسب الله ، وعصر الفن الجميل . بل انتهى عصر البواكى والعصر الذهبى لشارع محمد على . . وتم إلغاء خطوط الترام من القاهرة المحروسة . ولكن بقيت لافتات تدل على الشارع العظيم . مرة تحمل اسم : شارع محمد على باشا . . وأخرى تحمل اسم : شارع القلعة . . ولكن مازالت روائح التاريخ والذكريات تعطر المكان وتذكر كل المصريين بأنه كان ها هنا شارع . . له تاريخ .

● أين تمثال محمد على ؟

وأبدى الخديو إسماعيل اهتماماً كبيراً بحى القلعة . . ففى يوم ٢٩ أكتوبر ١٨٦٨م نشرت « الوقائع المصرية » فى العدد ٢٤٤ أن « الخديو إسماعيل قرر تحويل ميدان روملى وقره ميدان » إلى ميدان واحد وعمارة «تعمير» ما بأطرافه من أسوار القلعة ، وهدم الأبنية المختلة الحاجبة منظر جامع السلطان حسن . وبعد الفراغ من هذه المهمة « ستصور »

هنا صورة المرحوم محمد على باشا مجدد الحكومة المصرية ، بهيئة جسمية راكباً حصاناً من المعدن المعروف بالتنج . فلهذا ألغى اسم تلك الجهة القديمة . . وسميت الآن باسم : ميدان محمد على . ولتحويل المنطقة إلى ميدان عصرى تم كذلك نزع ملكية وشراء ٩١ محلاً بعد دفع ٩٨٦ كيسة « الكيس حوالى خمسة جنيهات » وترك البعض محله ولم يطلب تعويضاً ، وتم صرف الثمن لأصحاب المحال . . فى الحال . . هكذا قال على باشا مبارك فى خططه . .

أى إن الميدان ـ فى إحدى مراحله تمت تسميته باسم : ميدان رومل ، فهل المقصود: الرميلة ؟! كما تم إطلاق اسم قره ميدان . . وواضح أن هذا قبل أن يحمل الميدان اسم : قره قول الذى حرفه العامة إلى « كراكون » . أما تمثال محمد على المشار إليه . . فقد تم تنفيذه ولكنه وضع فى موقعه الحالى فى ميدان المنشية بمدينة الإسكندرية. وكان الأجدر أن يوضع فى ميدان العتبة الخضراء التى تغير اسمها إلى ميدان محمد على باشا .

***

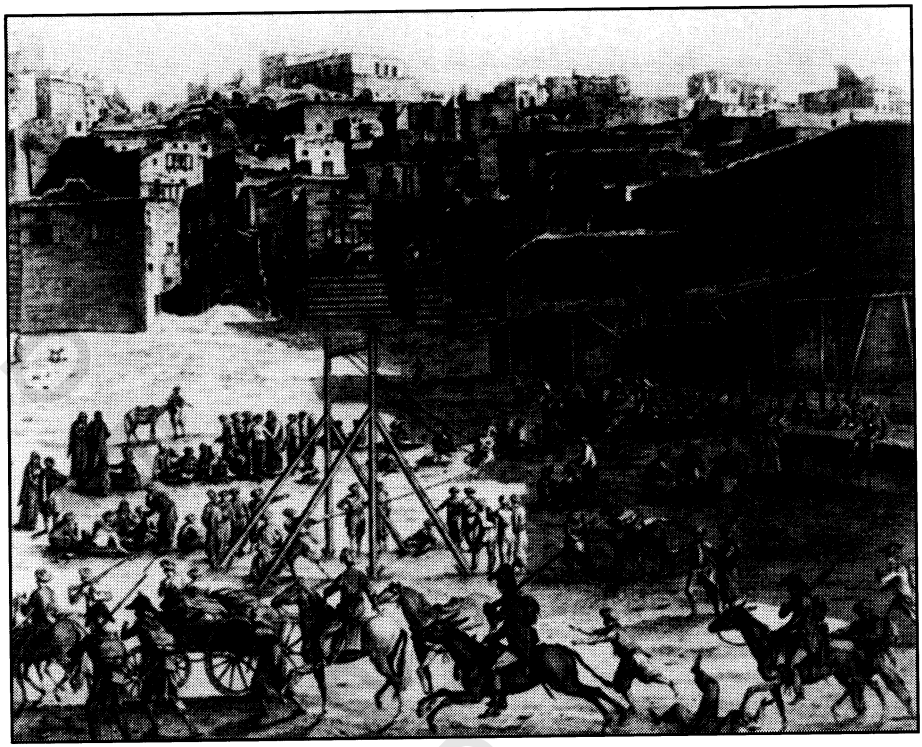

ميدان الرميلة ـ القلعة ـ فى عام ١٧٩٨م والأطفال يلهون بالمراجيح غير مبالين بجنود بونابرت الذين يعبرون الميدان .

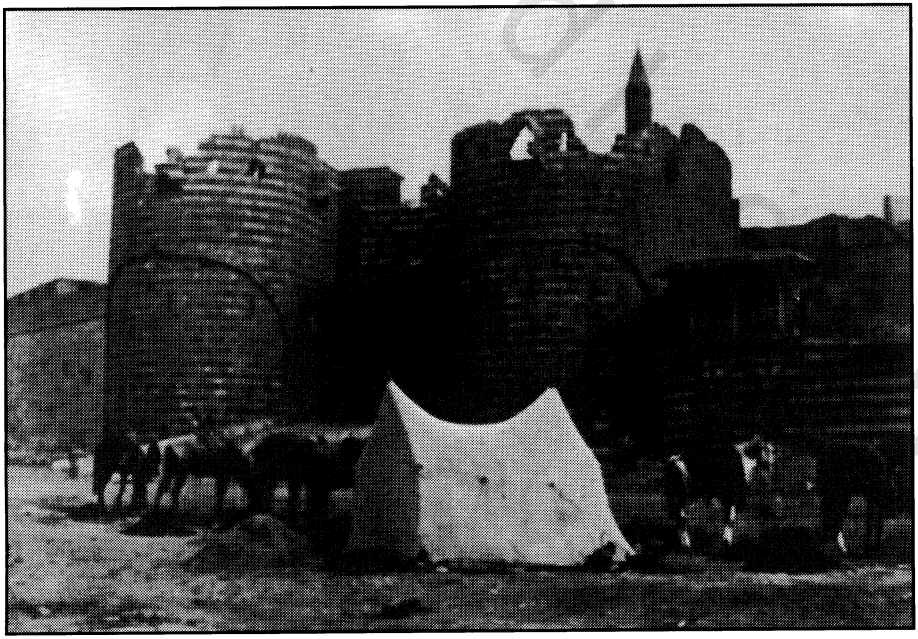

باب العزب فى الواجهة الغربية للقلعة المطلة على مسجد السلطان حسن فى ميدان الرميلة . . عام ١٨٥٧م .

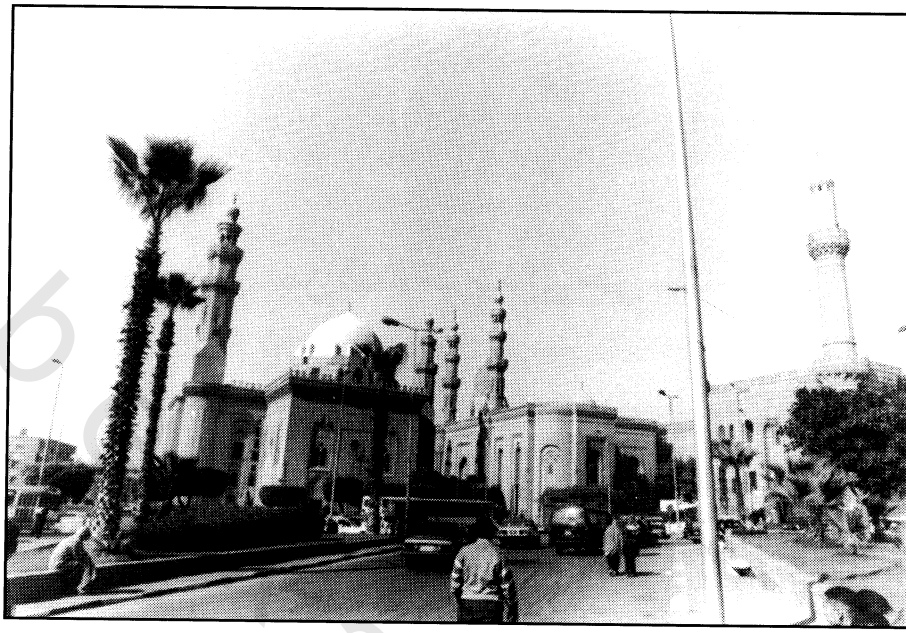

ميدان القلعة حيث مسجد ومدرسة السلطان حسن على اليسار ومسجد الرفاعى فى الوسط حيث دفن الخديو إسماعيل وفؤاد الأول وفاروق الأول ملكى مصر . . ثم مسجد قايت بك على اليمين .

أسوار قلعة صلاح الدين كانت تمنع امتداد العاصمة شرقاً وكانت تحميها من الغزاة .